نظرٌ عَقليٌ في الوَحي

للاب لويس معلوف اليسوعي

ورد لنا في المشرق (١ : ٩٦١) بعض القول في الدين خلاصتهُ انَّ من نظر متبصِّراً في حقيقة الدين وكنهِهِ تيقَّن أنهُ لا شكَّ واجب وانَّ الانسان سواء اعتبرتهُ منفرداً في ذاتهِ او منخرطاً في سلك الهيئة الاجتماعية لا مندوحةَ لهُ عن التديُّن. اللهمَّ إن اراد الاستنارةَ بالانوار العقلية التي جعلها ربُّك هدًى لمن استهدى

ويَقتضي مني سياقُ الكلام ذكرَ شيء ممَّا يَرتئيهِ العقل في امر الوحي الذي لا يغرب عن التارئ اللبيب ما لهُ مع الدين من العلاقات المُحكمة الجمَّة

الوحي لغةً: «كلُّ ما القيتَهُ الى غيرك ليعلمهُ كيف كان. ثم غلب الوحي في ما يُلقى الى الانبياء من عند الله تعالى» (اللسان والتاج). فهو اذًا عبارة عن أن ينبِّئ الله الانسان (مباشرةً او لا) بحقيقةٍ يجهلها البشر او لم يحسنوا معرفتها من بعض أوجهها. وموضوعهُ حقيقةٌ او مجموع حقائق يهتدي اليها المرء لا بنور عقلهِ الطبيعيّ بل بنور عَلَويّ فائق الطبيعة. وبذلك كان الوحي مختلفًا عن مُكتشفات العلوم الطبيعية والاستدلالات العقلية او النقلية فانَّ هذه ينالها الانسان بمجرَّد قواهُ الادراكية. امَّا الحقائق الوَحيية فهي في حصر المقال لا يتسنَّى لهُ عِلمها إن لم يُنعم عليهِ ربُّهُ بشيء من واسع علمهِ الازلي

وقد رفض البعض قبول الوحي. قالوا: لسنا بمُنكرين انَّ الله بدع الكونَ فلكَ ولهُ حقُّ السجود وانَّ على الانسان أن يُقرَّ بحقيقة علاقتهِ مع الله فيخضع لخالقهِ ومالكهِ متعبِّدًا ومتديِّنًا. وعليهِ يسلِّمون لنا بصدق ما سبق اثباته من وجوب الدين. على انهُ لمَّا كان الدين منهُ وحيٌ قائم على بناء عَلَويّ ومنهُ طبيعي لا يتعدَّى ما يكتشف عليهِ العقل البشري من الحقائق فهم يذهبون الى لزوم هذا وينكرون ذاك زاعمين ان الأديان يجب ان تكون مناسبة لماهيَّة الانسان وبمعزل عن كل معرفةٍ او غاية او طريقة من الطُرق والغايات والحقائق التي تفوق قوى الانسان الإدراكية

الطبيعية. والقائلون هذا القول هم الطبيعيُّون وتتشعب آراؤهم تشعُّبَ الاوهام والاضاليل ولا عجب

فمنهم من يقول باستحالة الوحي مطلقاً وعدم امكان وقوعهِ أيّاً كان. ومنهم من يُقرّ بان لا مانع يمنع من أن يكلِّم الله الانسان لكنهم يزعمون ان الله لا يُمكنهُ ان يُنبئنا بحقائق تفوق مُدركات العقل البشري كالحقائق التي تضاهي عقيدة الثالوث الاقدس من الاسرار. ومنهم أخيرًا من يدعي بان ذلك الوحي ولو سُلّم بإمكانيَّتهِ من كل وجه فهو لا طائل تحتهُ ولا فائدة منهُ تُرجى في امر الدين

وقصدي ان آتي على هذه الاوهام متتبعاً مقتصراً الآن على اعتبار هذه المسئلة اعتبارها الفلسفي تاركاً الى فُرصةٍ اخرى ما يتسع بهِ نطاقُها من المباحث اللاهوتية. وساتخذ الان ذات الخُطَّة التي سرت عليها في كلامي على وجوب الدين. اذكر اوّلًا ما تؤيّد بهِ الحقائق من الادلَّة ثم اردفها ببعض القول ردًّا على ما اتى بهِ حَمَلة رايات الضلال من الاعتراضات. وهو الاسلوب الذي استحسنهُ وعوَّل عليهِ انتتنا في مثل هذه المباحث الدقيقة

١

أن يُنزل الله على عباده وحيًا ما اي أن يتَّخذ اللهُ طريقةً من الطرق لتبليغ الانسان حقيقة من الحقائق ذلك امرٌ ان نظرت اليهِ من حيثيَّتهِ هذهِ المُطلَقة لا يتيسَّر لك ان تُرهق العقلَ انكارهُ ذلك لانك حيثما اعملت عامل الفكرة وبحثت عن مانع يمنع امكانية حصول الوحي فلن تجده إلا من احدى جهات ثلاث. جهة الله وجهة الانسان وجهة الحقائق نفسها الموحى بها

فاقول اوّلًا انهُ لا مانع يمنع الوحي من جهة الله. وماذا تراهُ يكون. ألِأنهُ غير لائق بجلال الله او لِأن الله عاجز عنهُ. ولا يغرب عن فهمك انهُ ان كان السبب العائق من جهة الله فالى اي من هذين الامرين يكون مُعادُهُ. والحالُ ان العقل السليم يأبى تصديق شيء من هذين المانعين. لانهُ يرى جليًّا ان الله لا شك قادر على ما يقدر عليهِ الانسان. والانسان يكشف لغيرهِ من القوم عن حقائق عرفها ويجهلونها اذًا ليس الله بعاجز عن ان يُطلعنا بواسطة الوحي العلوي عن بعض الحقائق اختصت بالدين ام لا

اما كونُ الوحي لا يليق بجلال الرب المتعالي فهو قول ساقط واهن لا يقبلهُ عقل

مُعيب. أمَا ترى البارئ تسامى سُموه وعلا علاؤُهُ يعتني بكل من مخلوقاته حتى احقرها يحفظها بعنايته الصمدانية ويرزقها من فَيْضِهِ كلَّ ما تحتاج اليهِ للقيام باعمالها والسعي وراء الغاية التي رسمها لها ولا يرى هنالك امرًا يحط بجلالهِ ويُخلّ بعلو شأنهِ. افيكون محطًا بقدرهِ عز وجل وغير لائق بهِ ان يعتني باشرف جزء من اشرف مخلوقات المكونة اي نفس الانسان وقواهُ الفَهْمية فيُشرق على عقلهِ انوار حكمتهِ الازلية فتتجلى الحقائق العليا للالباب وتستميل محبَّةُ الهدى مطامح الإرادة فيسعى الانسان مُجدًا فيها لبلوغ الغاية القصوى من معاينتهِ ربَّهِ والاندراج في بحبوحة سعادتهِ لا تفتأ القلوب اليها في شغل شاغل

فان كان اذًا لا عائق من جهة الله يحملنا على القول بتعسُّر حدوث الوحي فلم يبقَ مانع يمنع لا من جهة الانسان ولا من جهة الحقائق ذاتها. وذلك بيّن اليقين لان الانسان من طبعهِ اقرب الى اخذ الحقائق عن غيرهِ مما هو الى اكتشافها بنفسهِ وادراكها بجدهِ وبحثهِ. فان كان يقتبس العلم عن غيرهِ من البشر فايُّ مانع يصرفهُ عن اقتباسهِ من رب البشر ومصدر كل علم

ثم اعتبر جهل الانسان وقصر معارفه وقابل ما عهدتَهُ من ذلك مع حكمة الله وعلمهِ الواسع كل البرايا والحقائق. مَهما امتدت العلوم واتّسع نطاقها مهما استمدَّ الانسان من المعارف وكدَّ وجدَّ وطالع واكتشف واستدلَّ فلن تلقاهُ قد عادل علمُهُ علم مُبدعهِ بل لا تبرح هنالك حقائق جمّة تفوتُهُ فكثير منها ما يشكُّ بهِ واكثر منها ما يجهلهُ جهلًا صريحًا. فما كان من هذه الحقائق ووادِيها ألّا يسهل على العليم الرحيم بل أما يناسب صلاحهُ وجوده ان يطمع الانسان عليها ويشفي جهلهُ كاشفًا لهُ عن وجه الحقائق السامية بعض اطراف القناع

هذا وبما انَّ الدليل الذي اوردناهُ لا ردَّ عليهِ عند ارباب النهى فلا يحق لمعترض ان يقول لنا: يسر بل يستحيل عليَّ فهم او تصوُّر الكيفية التي يخاطب الله الانسان عليها متى شاء وانعم عليهِ بالوحي الذي ذكرت. اذًا هذا الوحي شيءٌ مستحيل الحصول

ذلك لعمرك خلاصة أقاويل الجمّ الغفير من الطبيعيين القائلين بعدم امكانية الوحي مطلقًا. وخلاصة اجوبتنا عليهم اننا نسلم ان تلك الكيفية يعجز الانسان عن تصورها ولكن متى عهدت عدم فهم الشيء يمنع كونَهُ موجودًا. قل لي واصدقني الست

تنسب الى اقبح الجهل ذاك الذي يقول لك هذا الامر يفوق إدراكي فهو اذًا باطلٌ او غير حاصل في الوجود. الست ترشقهُ حالًا باشدّ سهام اللوم وتستشهد لهُ عليهِ بكلام الغزّالي:

انت لا تعرف اياك ولم تدرِ من انت ولا كيف الوصولْ
لا ولا تدري صفاتٍ رُكّبت فيكَ حارت في خفاياها العقولْ
اين منك الرُّوح في جوهرها هل تراها او ترى كيف تجولْ
انت اكل الخبز لا تعرفهُ كيف يجري فيك ام كيف يحولْ

وكم وكم هناك من الكيفيّات في الكون جهلناها وسنجهلها حتّى الممات. كم وكم من الامور والأحكام والسنن في الفلكيات والطبيعيّات لا نفهم كيفية حصولها على اننا تَخطُرُنا واقعة الحال ودامغة الادلّة ان تسلم بانها لا ريب حاصلةٌ موجودةٌ. افن جهل كيفية الكيان لا يدلُّ على استحالة الكيان وجهل كيفية الوحي ليس ببرهان على عدم امكانيّتهِ

٢

سعت العلماء في كلّ اوان ومكان ولم يزالوا يسعون سعيهم المحمود وراء العوائق يذلّلونها ويقهرونها والمصاعب يتجشّمونها برضى حبًّا منهم وهُياماً بمعرفة كُنهُ الاشياء ومصادرها وعِلَلها وقواها. كم أزالوا من شكٍّ وريب وكم ارسلوا نِبراس البحث والاستكشاف في مجاهل الافكار ومعاميها فتقلّصت ظُلمات التي وتجلّت لهم حقائق كان حجبها عن الالباب حُجُبٌ كثيفةٌ

وكاني بهم لم يبذلوا الوسع الوسيع والجهد الجاهد إلا لتقرير وتعزيز حقيقةَ أن عقل الانسان متناهي الإدراك محدود القوى. تلك الامور الحسّية مثلًا اسهل معلومات الانسان واجلاها يراها بعينهِ ويسمعها باذنهِ ويلمسها بيدهِ فيستعين على ادراكها بعقلهِ وحواسهِ اي بكل قواه الادراكية. فهل عهدت عالمًا مهما اتّسع علمهُ وامتدت مباحثهُ بلغ الدرجة القصوى لست اقول من الإحاطة بموضوع علمهِ بل من معرفة شيء وجد من الاشياء ايًّا كان. هل ألفيتهُ يخبرك عن الجواهر على حقّها او ينبئك عن خواصها ومزاياها ومفاعيلها كلها ويعلمك بكيفية تكوُّنها وتولُّدها ونموّها وانتشارها. ذلك العالم لم ترَهُ ولن تراه. بل العلماء انفسهم هم هم اوّل من يعلن على رؤوس الملا انهم حيثما

اتجهوا واينما انقلبوا يجدون في دائرة مباحثهم اسراراً عديدة لا يقدرون على كشف غمضها

فان كانت الامور الطبيعية الحسية تُعجز الانسان عن تقصي اسرارها أتحالهُ صانك الله من كل وهم اقوى واقدر على تقصي اسرار رب الطبيعة ؟ أتظنهُ يسع علمه طبيعة رب العلم و يدرك صفات وكنه ملك الكمال وذات الكمال ؟ بل اي انسان يطمع باستقصاء حكمة ربهِ في خلق الانسان والحالة الحاضرة التي اقامتهُ فيها والغاية الازلية التي جعلتها لهُ وامرتهُ بالسعي وراءها . من منّا يفقه مساعي العناية الصمدانية في الاخيار والاشرار . . . من ؟ من ؟ من ؟ زد عليها ولا حرج

وعليهِ ترى نوَّر الله فهمك انَّ هناك امورا لا تحصى تفوق الإدراك البشري . انَّ هناك اسراراً عديدة لا تستقصى . فاقول انَّ لا مانع يمنع الله ان يطلع الانسان على شيء منها بل ان العقل يدلنا ان ذلك اي وحي الاسرار امر يليق بالله ويناسب صفاتهِ الحسنى مناسبة تامّة

البرهان هو ان الله لمطلق قدرتهِ ولاتساع حكمتهِ يستطيع ان يتخذ الوسائط اللائقة الكافية لتبليغ الانسان ما يشاء ان يعلمهُ بهِ والحقائق الفائقة الطبيعة البشرية . وفيما سبق غِنىً عن التوسع في الاستدلال على هذه الحقيقة . وعلاوةً على ذلك نذهب الى ان صفات البارئ تستدعي بل تستدعي بنوعٍ ما ذلك التبليغ وذلك الوحي بالأسرار . خلق الله الانسان فكلُّ ما للانسان هو من الله وعليهِ . فان الله سيّد الانسان وربُّهُ من كل وجه فيترتب على ذلك ان الانسان يجب عليهِ ان يكون خاضعاً لله من كل وجه اي في كل قواه الجسدية والروحانية ولاسيما في قواه العقلية اسمى وافضل هبات العليّ . اذًا لا يمكن ان يكون الانسان مستبدًّا مستقلاً عن ربهِ في شيء فمن المُحال ان يكون فهمهُ غير خاضع لربهِ من وجه من الأوجه

والحال انَّ خضوع فهم الانسان لله لا يظهر جليًّا ان لم يؤمن الانسان ويعتقد ببعض حقائق تفوق طَوره ببعض أسرار لا يُدرك كنهها ولا يفهمها فيؤمن بها ويركن الى صِدقها لا لأنهُ اكتشفها بذاتهِ بل لمجرَّد كون الله تعالى اوحى اليهِ بها . لو لم يعتقد الانسان الّا ما ادركهُ بعقلهِ واستدلَّ على يقينهِ بمجرَّد فهمهِ لكان يؤمن

بنفسه فقط لا بالله وهكذا يستقلّ عن مُبدِعِهِ من حيث الفهم وهذا لا يليق التسليم بهِ

ولا بِدْع إن كان الله يتطلّب من الانسان أن يعتقد اعتقاد اليقين اسرارًا لا يفهمها. ولا من امر هناك يعاكس طبيعة الانسان الفهمية. انما يعاكس طبيعة الانسان الفهمية ان يعتقد الشيء دون سبب كافٍ يحملهُ على اليقين والحال ان للحقائق والاسرار الموحى بها سبباً كافياً تضطرنا على الاقرار بها والاذعان بانها مقارنة الصدق والصّواب. وذلك السبب الداعي الى اليقين والاذعان هو من جهة العلم البيّن بان عقل الانسان قاصر محدود الادراك. ومن جهة اخرى العلم بانّ الله صادق لا يُطفي ولا يضلُّ بشرًا. فمتى ثبت لنا بالبراهين المُقنعة وبالشهادات الصادقة انّ الله تنازل وكلّمنا واوحى لنا وحياً ما فذلك يكون لا شك اقوى وافعل دليل على صدق العقيدة وتقرير اليقين عند كل من قدّر الامور حقّ قدرها

هذه كلُّها ادلّة جلية وحقائق صريحة يقبلها كل عقل لم يَستهوهِ الضلال ولم تجنح بهِ الاميال الى وهاد الحماقة. بيد ان الطبيعيين اعداء كل دينٍ يفوق طور الطبيعة يسعون كلّ مسعى ويفرغون كنانة المناصلة والمعاندة في دحض إمكانية الاسرار التي تنازل ربُّك واوحى بها. وفيما سبق من البرهان كفاية لرد كل حججهم الواهية التي يحاولون ان يقنعونا بها انهُ لا يستطيع العقل قبول الاسرار. ولكن احببنا ان نعرض على تبصُّرك بعض اعتراضاتهم لترى وهنها وسهولة إبطالها

عهدناهم مثلًا يتوردون الصُّحف الطويلة لتبيان انّ الاسرار إنْ هي إلّا الفاظ وعبارات مُبهمة معمّاة لا يفهمها عقل ولا يُرى من ورائها حقيقة

لقد صدقوا كل الصدق في قولهم ان الاسرار لا سبيل للعقل البشري الى فهمها. لكننا ذكرنا لك وانت لا شكّ تُقرّ لنا بانّ عدم فهم الشيء لا يقوم عند من عقل دليلًا على عدم وجود ذلك الشيء. اولئك الذين يستغربون عدم اقتدارهم على فهم الاسرار أما يعتقدون الاعتقاد الصادق المتين بوجود المادّة والنور والحرارة والكهربائية والمغناطيس وتجاذب الاجرام السماوية بعضها بعضاً الى غير ذلك من الامور الحسية ويُقرون انها حاصلةٌ في نظام الكون لا وجه لنكرانها. ولكن سَلهم هل فهموا يوماً كُنهَ طبائعها هل وقع حسُّهم ام استدلّ عقلهم ام اعربت لهم الحيّة عن شيء من امر

جوهرها وعللها الباطنة وكيفيّات بَدْئها وقوامها الخ. اذًا لا بدّ من التسليم باننا نعتقد مصيبين كل الاصابة بوجود اشياء جمة لا يفهمها عقلنا ولا يدركها ادراكنا والاسرار من هذا القبيل. انما تفوق فهم العقل لا مَعرفتُهُ فان لم يتمكن العقل لضعفهِ وقصر قواه من فهمها فيبقى لهُ ان يعرفها ويعلم انها موجودة. والحكيم من عرف نفسه واقرّ بعجز العقل وركن الى ما ارتآهُ العقلاء في هذا الشان ولو تمهّدنا فعالهم وجمعنا اقوالهم لأتينا بحُجَج تملأ الكتب المنضّدة على اننا كثيرًا ما نستدل الاستدلال الدامغ على الوجودات وبعدئذٍ لا نرى ادنى مرشد يرشدنا الى فقه الكيفيّات. وفي ذلك لربّك حكمة سامية كما مرّ بك. اليك ما قالهُ في هذا المقام « جان جاك روسو » هنهُ:

« كلما طال تأمّلي في طبيعة الله كلّ فهمي اياه. على انّ الله لا تحالة موجود وذلك يكفيني. وكلّما قلّ فهمي وبان عجزي يزداد تعبّدي لله وسجودي لهُ فأهتف من صميم القلب قائلًا: يا كون الكائنات أجلّ ما كنت وُجِدتُ انا لو لم تكن انت موجودًا. وما من امر يبان في عيني اشدّ صوابًا من ان أتضع واتلاشى أمام عظمتك »

تلك هي النتيجة اللازمة الصادقة التي يجب ان تصدر عن تحقق عجز الفهم البشري: صرفُ الانسان عن سبل التي والصّلف وحملُهُ على أنهُ يتعبّد لمعبودهِ ويعنو لوجهِ ربّهِ. ولله البُرعي اذ قال وقولهُ يزري بالدرر:

هو اولٌ هو اخرٌ هو ظاهر ... هو باطن ليس العيون تراهُ
حجبتهُ أسرار الجلال فدونهُ ... تَقِفُ الظنونُ وتخرس الافواهُ

هذا هو الاقرار بعجز العقل عن فهم البارئ تعالى. واليك ما قالهُ في يقين معرفتنا انهُ عزّ وجل موجود:

شهدتْ غرائب صُنعهِ بوجودهِ ... لولاهُ ما شهدتْ بهِ لولاهُ
سلْ عنهُ دارات الوجود فانها ... تدعوهُ معبودًا لهُ ربّاهُ

ثم يشير الشاعر الى ما ينجم عن هذا عدم الفهم ويقين المعرفة من حسن النتيجة:

واليهِ أذعنتِ العقولُ فآمنت ... بالغيبِ تؤثرُ حبّها اياهُ
سُبحان من عنَتِ الوجوه لوجههِ ... ولهُ سجدنَ واوجهٌ وجباهُ
طوعًا وكرهًا خاضعين لعزهِ ... ولهُ عليها الطوعُ والإكراهُ

(ستأتي البقية)